

قراءة في كتاب الغزالي "الحكمة في مخلوقات الله"

عبيدة خليل الشبلي

الملخص: من أعظم القضايا التي شغلت الفكر الإنساني الوجود والخلق، وهاتان القضيتان دفعتا علماء هذه الأمة إلى التأليف والإطالة في معانيهما، وهذا ما سار عليه حجة الإسلام الغزالي رحمه الله. حيث يعد كتاب "الحكمة في مخلوقات الله" من الكتب القيمة في قسم العقيدة الإسلامية، فهو من الكتب التي تدعو إلى التفكير وإطلاق العنان والتأمل بمسألة الخلق والإيجاد. وقد قسم البحث إلى عدة مباحث، فأما المبحث الأول فقد تناول البحث فيه التعريف بالغزالي، اسمه ونسبه ومولده، ونشأته في العلم وأثاره العلمية، وأما المبحث الثاني فقد تناول فيه البحث التعريف بكتاب المؤلف من خلال دراسة أقسامه وبيان الحكمة في خلق الكون المشتمل على حكم عظيمة من خلق "الشمس_ القمر والكواكب_ الأرض_ البحر_ الماء_ الهواء_ النار" ثم بيان الحكمة في خلق بعض الحيوانات "النمل_ النحل_ العنكبوت_ دود القز" وقد تكلم البحث على بيان عظيم الحكمة في خلق ما ذكره من خلال التعليل وتفسير ما جاء وفق منهج الغزالي في الكتاب، ثم انتهى البحث بخاتمة لمجمل ما ورد فيه، ثم ثبت للمصادر والمراجع.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله العلي العظيم الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، أحمده سبحانه وتعالى، وهو القائل: "فوق كل ذي علم عليم"، ويعلم ما في نفوسكم ويعلم ما تخفي الصدور، له الفضل والمنة، وله التعظيم والتبجيل والتسبيح والتقديس، والصلاة والتسليم على محمد حبيب رب العالمين، الذي أرسله رحمة للعالمين، وقد بلغ الرسالة وهدى الأمة صلى الله عليه وسلم.

أما بعد: فقد حاولت في هذا البحث أن أدرس كتاباً جليلاً عظيماً من مؤلفات العالم الفقيه الجليل: الغزالي رحمه الله، وهو بعنوان: الحكمة في مخلوقات الله، وقد قسمت البحث إلى مباحث، مبحث أول: تحدثت فيه عن المؤلف بالتعريف، ومؤلفاته، وشيوخه، وفضله، ومبحث ثانٍ: تناولت فيه الكتاب بالدراسة والتعليق والتبيين لسبب تأليفه، والتبيين ماهي الحكمة التي أودعها في مخلوقاته بعد خلقها، وما ورد في السياق من فوائد ودلائل عظيمة تدل وتبين الحكمة في مخلوقات الله، ولم خلق الله كل ما ذكر المؤلف من أصناف وأسباب، ثم أنهيت البحث بخاتمة للدلالة على ما خلص إليه البحث، ولا يدعي البحث الكمال والنضج التام، ولا يخرج عن باب المحاولة، وما وقع في هذا البحث من صواب وسداد فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والله من وراء القصد.

مشكلة الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى مقارنة النصوص الواردة في الكتاب من خلال ربطها بنصوص تدعو إلى التأمل والتفكير في خلق الكون عامة وخلق الكون خاصة مما ورد مقسماً في الكتاب. وأما السبب الرئيس في اختيار البحث، فإنه يكمن في أن كتاب الغزالي "الحكمة في مخلوقات الله" لم يلقَ من العناية ما يستحقه، ولم يدرس حق الدراسة؛ لذلك كانت هذه الدراسة محاولة لإعادة هذا الكتاب إلى النور من جديد بعد ذلك الزمن الطويل والسنوات الغابرة؛ ولأننا نعلم أن العلماء من الناس الذين قيل في حقهم: قد مات ناس وهم في الناس إحياء، كان حقا علينا الحديث عنه وبيان فضل المؤلف فيه.

أهداف الدراسة:

1. استعراض النصوص والآيات القرآنية التي تدعو إلى التأمل والتفكير بآلاء الله وآياته الدالة على وجوده.
2. بيان فضل الله عباده من خلال ما خلق لهم وسخر لهم؛ إذ جعلهم خليفة له في الأرض.
3. إعادة إحياء الكتاب من خلال هذه الدراسة التي تبين جمال ما ورد فيه مما يدعو إلى توحيد الله وشكره على هذه نعمه التي لاتعد ولا تحصى.

أولاً: التعريف بالمؤلف:

أ- اسمه ونسبه ومولده :

جلُّ ومعظم كتب ومؤلفات الغزالي ذكرت في مقدماتها اسمه، وتجمع على أنه محمد بن محمد بن أحمد، الإمام زين الدين أبو حامد الغزالي، الطوسي، الفقيه الشافعي.⁽¹⁾

ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة هجرية، وإليها ينسب فيقال: الطوسي، كما يقال له الغزالي نسبة إلى صنعة أبيه كما يذكر ذلك ابن الأثير: الغزالي بالتشديد، وهو منسوب إلى بائع الغزل، أو الغزالي على عادة أهل خوارزم، وجرجان، وكان هذا بلسان العجم،⁽²⁾ ومنهم من ينسب بالتخفيف وهو الأشهر وذلك ما ذكره الحافظ الذهبي في السير، فقد قرأ بخط النووي، قال الشيخ تقي الدين بن الصلاح، وقد سئل عن سبب تسمية الغزالي بذلك، فأورد قولاً للغزالي نصه: "الناس يقولون لي الغزالي، ولست الغزالي، وإنما أنا الغزالي منسوب إلى قرية يقال لها غزالة"⁽³⁾ كان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس، فلما حضرته الوفاة وصّى به بأخيه أحمد إلى صديق متصوف من أهل الخير، وقال له: "إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط، وأشتي استدرارك ما فاتني في ولدي هذين، فعلمهما ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما"⁽⁴⁾ على أن هذا الرجل الطيب قد أنفق ما تركه والدهما لهما من مال في طلب العلم حتى نفذ، فطلب منهما أن يذهبا إلى جرجان؛ لإكمال التعلم، فكان في ذلك شأن عظيم لهما، يقول الغزالي: "طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله"⁽⁵⁾

ب- نشأته في العلم :

نشأ الغزالي في عائلة فقيرة، وبدأ مسيرته العلمية بقراءة الفقه على أحمد بن محمد الراذكاني.⁽⁶⁾ ثم سافر إلى جرجان وتلمذ فيها على يد الإسماعيلي، وهو أحد شيوخ المذهب الشافعي، فقد قرأ عليه الفقه ومبادئ علم الأصول، وأفاد منه ما أفاد، وقد حفظ عنه ما كتبه، يقول في ذلك: "هذا مستنطق أنطقه الله ليرشد به أمري، فلما وافيت طوس على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقت، وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي"⁽⁷⁾

وقد ذكره بعض العلماء في هذه المرحلة من النشأة منهم الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل؛ إذ قال فيه: "وجدت واجتهد حتى تخرج من مدة قريبة، وبرز الأقران، وحمل القرآن، وصار أنظر أهل زمانه، وأوحد أقرانه، في أيام إمام

1 وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة دار الصياد، بيروت.

2 ينظر: طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، تح: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، ط1، مطبعة الإرشاد، بغداد، ج4، ص 471.

3 سير أعلام النبلاء، الذهبي، تح: خيرى سعيد، المكتبة التوفيقية، مصر، ج14، ص324.

4 الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المائة الخامسة، صالح أحمد الشامي، دار القلم، دمشق، ط1، 1993م، ص19.

5 المرجع السابق، ص19.

6 ينظر: طبقات الشافعية، السبكي، ج2، ص 399.

7 طبقات الشافعية، السبكي، ج4، ص 103.

الحرمين، وكان الطلبة يستفيدون منه، ويدرس لهم، ويرشدهم، ويجتهد في نفسه، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ بالتصنيف⁽⁸⁾.

ثم سافر الغزالي إلى نيسابور وتلمذ على يد إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، حيث جد واجتهد، حتى برع في المذهب الشافعي، وفي الخلاف والجدل، وعلم أصول الدين، وأصول الفقه، كذلك برع في الفلسفة والمنطق، وقد قرأ الحكمة، وفهم كل أرباب هذه العلوم، وصنّف في كل فن من الفنون كتباً، أحسن تأليفها، وأجاد وصفها⁽⁹⁾. وقد كان إمام الحرمين يصفه؛ إذ يقول: "الغزالي بحر مغدق"⁽¹⁰⁾ وما هذا إلا لعظيم شأنه في العلم، وجدّه في طلبه، وقد جعله الجويني تابعاً ونائباً عنه يقوم مقامه إذا غاب، وبعد موت الجويني- شيخه الفاضل- خرج الغزالي وكان عمره 28 سنة إلى عسكر نيسابور وهي مدينة مشهورة بخراسان⁽¹¹⁾ قاصدا الوزير نظام الدين، والذي ولاه التدريس في النظامية، والتي بدأ يناظر فيها العلماء.

ثم قدم الغزالي بغداد سنة 484هـ وكان عمره 34 سنة، درّس فيها، وانتشر وذاق صيته، وطارت شهرته لدى الأمراء والملوك، وقد استمر يدرّس في نظامية بغداد لمدة 4 سنوات حتى عام 488هـ، وخلال هذه الفترة عكف على دراسة الفلسفة، وألّف كتابه مقاصد الفلاسفة، الذي وضع فيه أقواله دون نقد، ثم ألّف بعد ذلك كتابه تهافت الفلاسفة، والذي نقد فيه الفلاسفة والفلسفة، وبين من خلاله تهافت أقوالهم. يقول الغزالي في ذلك: "ثم إنني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة وعلمت أن رد المذهب قبل فهمه، والاطلاع على منهجه رمي في عماية، فشمريت عن ساق الجد، في تحصيل ذلك العلم من الكتب، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية، فأطلعني الله بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلصة، على منتهى علومهم في أقل من سنتين، ثم لم أزل أواظب على التفكير فيه بعد فهمه تقريبا من سنة، أعاوده، وأردده، وأتفقد غوائله، وأغواره، حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتليبس، وتحقيق وتخيل، اطلعا لم أشك فيه"⁽¹²⁾.

ج- شيوخه في العلم:

تلقى الإمام أبو حامد الغزالي العلم منذ صباه على يد عدد من شيوخ الفقه والأصول، والكلام، والتصوف. "فأول مشايخه في الفقه الإمام أبو حامد أحمد بن محمد الرادكاني الطوسي، وقد قرأ عليه بطوس، ثم أبو النصر الإسماعيلي، وقد قرأ عليه بجرجان، ثم إمام الحرمين وقد قرأ عليه بنيسابور، وكتب عنه التعليقة التي شرفت منه"⁽¹³⁾ وأما في التصوف فقد تلمذ على يد أبي علي الفضل بن محمد بن علي الغامدي الطوسي، وهو من أعيان تلامذة أبي القاسم القشيري، وهو صاحب الرسالة المشهورة "الرسالة القشيرية"، وكما تلمذ في أواخر حياته على يد بعض المشايخ في الحديث منهم: أبو سهل المروزي، ومحمد بن يحيى الزوزني⁽¹⁴⁾ والمعروف في هذا الباب أنه لم تكن للغزالي يد باسطة في الحديث. وأما في الفلسفة فلم يكن له أستاذ فيها وقد بين ذلك بقوله: "فشمريت عن ساق الجد

8 الإمام الغزالي ومجدد المائة الخامسة، صالح أحمد الشامي، ص 21.

9 المرجع السابق، ص 21.

10 إتحاف السادة المتقين، محمد بن محمد الحسيني الزبيدي، دار الفكر، الجزء الأول، ص 67.

11 ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، الجزء الرابع، ص 124.

12 المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال، الغزالي، تحقيق د. سمير دغيم، ط 1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1993، ص 61-62.

13 إتحاف السادة المتقين، محمد بن محمد الحسيني الزبيدي، ج 1، ص 19.

14 ينظر: المرجع السابق، ج 1، ص 19.

في تحصيل ذلك العلم من الكتب، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي في التصنيف والتدريس⁽¹⁵⁾

وعندما نتحدث عن شيوخ الغزالي لأبد من الحديث عن تلاميذه الذين برزوا نسبة له، وفضلاً عنه، فقد درّس كثيراً من التلاميذ، كما تذكر المؤلفات، بلغ عددهم 300 طالباً، وذلك في بغداد، ومنهم "القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله العربي المعافري، وأبو الفتح أحمد بن علي بن برهان الحماصي، ومن تلاميذه أبو سعد محمد بن يحيى بن منصور النيسابوري، وأبو عبد الله محمد بن تومرت، الملقب بالمهدي، ومجد الدين أبو منصور محمد بن أسعد العطار الطوسي الواعظ، وقد نقل هؤلاء عنه جوانب من حياته في ثنايا مؤلفاتهم"⁽¹⁶⁾.

د- آثاره العلمية:

تعددت مشارب الغزالي في طلبه حقائق العلم والمعارف، وهذا كان له كبير الأثر في مؤلفاته، وكثرة مصنفاته، وإنتاجه العلمي في سائر العلوم، ذكر ذلك عن نفسه إذ قال معبراً عن هذه المعاني: "ولم أزل في عنفوان شبابي وريعان عمري منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن عن الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأنوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم ظاهريته، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقا معطلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته"⁽¹⁷⁾.

وقد ذكر الإمام الغزالي عدداً من مصنفاته في مقدمة كتابه المستقصى في علم الأصول، فقال: "ثم أقبلت على علم طريق الآخرة، ومعرفة أسرار الدين الباطنة، فصنفت فيه كتاباً بسيطة كتاب إحياء علوم الدين، ووجيز ككتاب جواهر القرآن، ووسيلة ككتاب كيمياء السعادة"⁽¹⁸⁾.

ومن العلماء من يقسم مؤلفات الغزالي تقسيماً تاريخياً إلى خمس مراحل.

الأولى: من تحصيله حتى وفاة شيخه الجويني، وألف فيها "التعليق على فروع المذهب، والمنخول في أصول الفقه".

الثانية: خروجه إلى عسكر قاصداً الوزير نظام الدين، وتدرسه في نظامية بغداد إلى أن اعتزل التدريس، وألف فيها: البسيط والوجيز والوسيط ومقاصد الفلاسفة ومعيار العلم وميزان العمل والاقتصاد في الاعتقاد.

الثالثة: وفيها اعتزاله وتزهدده واعتكافه وتنقله بين البلدان الإسلامية، وألف فيها: إحياء علوم الدين - الأربعين في أصول الدين - المقتصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

الرابعة: عودته للتدريس في المدرسة النظامية، وألف فيها: المستقصى في علم الأصول - الإملاء على كتاب الإحياء.

15 ينظر: الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المائة الخامسة، صالح أحمد الشامي، ص35.

16 المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال، الغزالي، ص61.

17 المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال، الغزالي، ص50.

18 المستقصى في علم الأصول، الغزالي، ط1، المطبعة الأميرية، بيروت: 1322هـ، ج1، ص4.

الخامسة: وهي السنوات الأخيرة من حياته من سنة 503هـ إلى 505هـ وفاته، وألف فيها: إجماع العوام عن علم الكلام- منهاج العابدين.⁽¹⁹⁾

المبحث الثاني: التعريف بكتاب الحكمة في مخلوقات الله للغزالي من خلال:

ب- دراسة أقسام الكتاب ومنها:

سيقف البحث في هذه المرحلة على الأبواب التي جاء بها الكتاب، وما الذي جاء به من أفكار عن الحكمة من خلق كل شيء، وهذه المعاني العظيمة التي تدعونا للتفكير، وإعمال العقل، وهي على النحو الآتي:

أولاً: الحكمة في خلق الكون وفيها " الشمس- القمر والكواكب- الأرض- البحر- الماء- الهواء- النار"

يدعو الإمام الغزالي أصحاب العقول في هذا الباب إلى التأمل والتفكير من خلق هذا الكون العظيم، فلم يخلق هذا الكون عبثاً، بل لأشياء لها أهميتها المسندة إليها، قال تعالى: " أفلا ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج"⁽²⁰⁾ وقوله تعالى: " الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن. يتنزل الأمر بينهن. لتعلموا أن الله على كل شيء قدير"⁽²¹⁾

يقول الغزالي في معاني هذه الآيات: " اعلم رحمك الله أنك إذا تأملت هذا العلم بفكرك، وجدته كالبيت المبني، المعد فيه جميع ما يحتاج إليه، فالسما مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالسطح، والنجوم منصوبة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالدخائر، وكل شيء من ذلك معد مهياً لشأنه، والإنسان كالمملك للبيت، المخول لما فيه، فضروب النبات لمآربه، وأصناف الحيوانات مصرفة في مصالحه، فخلق سبحانه السماء، وجعل سبحانه لونها أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها، ولو كانت أشعة وأنواراً لأضرت الناظر إليها، فإن النظر إلى الخضرة والزرقة موافق للأبصار، وتجد النفس عند رؤية السماء في سعتها نعيماً وراحة، لاسيما إذا انفطرت نجومها وظهر نور قمرها"⁽²²⁾ ولا يقف هذا المعنى العظيم من خلق الكون عند تفاصيل السماء، بل يذكر الغزالي في هذا الباب أمثلة تقرب الإيفهام لدى العقول، يقول: " والملوك تجعل في سقوف مجالسها من النقش والزينة ما يجد الناظر إليه به راحة وانشراحاً، لكن إذا داوم الناظر إليه نظره وكرره مله، وزال عنه ما كان يجده من البهجة والانشراح، بخلاف النظر إلى السماء وزينتها، فإن الناظر إليها من الملوك فمن دونهم إذا ضجروا من الأسباب المضجرة لهم يلجؤون إلى ما يشرحهم من النظر إلى السماء وسعة الفضاء"⁽²³⁾ ففي هذا القول يقارن الغزالي بين سقوف الخلفاء التي مع النظر المتكرر إليها يصيب الناظر إليها حالة الملل والسأم، بينما ينظر الملوك وغيرهم إلى السماء نظراً كثيراً مكرراً لا يصيبهم ملل؛ لأنه صنعة الخالق المبدع، سبحانه جل علاه.

19 ينظر: المآخذ العقديّة على كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، رسالة ماجستير في العقيدة، جامعة أم القرى، الطالبة أمال بنت عبد الرحمن بن أحمد، إشراف د. سالم بن محمد القرني، 1428هـ، ص 37-38-39.

20 سورة ق، الآية: 6.

21 سورة الطلاق، الآية: 12.

22 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، تحقيق د. محمد رشيد القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط1، 1978م، ص 15-16.

23 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 16.

ويختم الغزالي هذا الباب بقوله: "وفي النظر إلى السماء عشر فوائد: تنقص الهم، وتقلل الوسواس، وتزيل وهم الخوف، وتذكر بالله، وتشر في القلب التعظيم لله، وتزيل الفكر الرديئة، وتنفع لمرض السوداء، وتسلي المشتاق، وتؤنس المحبين، وهي قبلة دعاء الداعين"⁽²⁴⁾

الحكمة في خلق الشمس:

يتحدث الغزالي في هذا القسم عن الشمس ودورها في الكون، فهي من العناصر المرتبطة بالتفكير في خلق الكون، ويدعو من خلال حديثه عن الشمس إلى تأمل حال الناس دون نورها، ودون حرارتها للتدفئة، وفي ذلك إشارة عظيمة للدلالة إلى المنفعة العظيمة للشمس، وكيف كان حال الناس لو بقيت الظلمة، فلاسعي لهم لكسب الرزق، أو تدير الأمور، ويذكر هنا قوله تعالى: "وجعل الشمس سراجاً"⁽²⁵⁾ وقوله تعالى: "وجعلناها سراجاً وهاجاً"⁽²⁶⁾ يقول في ذلك: "فالذي ظهر من حكمته فيها، أن جعل حركاتها لإقامة الليل والنهار في جميع أقاليم الأرض، ولولا ذلك لبطل أمر الدنيا والدين، أو لولاه كيف كان الناس يسعون في معاشهم؟ ويتصرفون في أمور لهم والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف يهنؤون بالعيش مع فقدهم لذة النور ومنفعته، ولولا ضياء نورها ما انتفع بالأبصار ولم تظهر الألوان"⁽²⁷⁾

ويذكر رحمه الله فائدة الشمس وأهميتها في كل فصل من الفصول، فللشمس في كل فصل من الفصول سمات وخصائص تكون مختلفة عن خصائصها وسماتها في الفصول الأخرى، يقول: "ففي الشتاء تعود الحرارة في النبات والشجر، فتتولد فيه مواد الثمار، ويستكشف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر، وتشتد أبدان الحيوان... وفي الربيع تتحرك الطبائع في المواد المتولدة في الشتاء، فيطلع النبات بإذن الله، وينور الشجر، وتهيج أكثر الحيوانات للتناسل، وفي الصيف ينضج الثمر، ويجف وجه الأرض، فتتهبأ لما يصلح لذلك من الأعمال، وفي الخريف يصفو الهواء، فترتفع الأمراض، ويمتد الليل فيعمل فيه بعض الأعمال، وتحسن فيه الزراعة، وكل ذلك يأتي على تدريج وبقدر، حتى لا يكون الانتقال دفعة واحدة، إلى غير ذلك مما يطول لو ذكر"⁽²⁸⁾

الحكمة في خلق القمر والكواكب:

يتحدث الغزالي في هذا القسم عن حكمة الله في خلق القمر بعد حديثه عن الحكمة عن خلق الشمس، ويذكر في هذا القسم قوله تعالى: "يبارك الذي جعل في السماء بروحاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً"⁽²⁹⁾ فالله لم يجعل الليل فقط لبرد الهواء، بل جعله سباتاً وراحة للناس، ولم يجعل لليل ظلمة داخية بلا إنارة، بل جعل فيها قمراً منيراً، وفي ذلك خلاف بين الليل والنهار من حيث العمل، يقول في ذلك: "اعلم أن الله سبحانه وتعالى لما جعل الليل لبرد الهواء، وهدوء الحياة وسكونها، لم يجعله سبحانه وتعالى ظلمة داخية لا ضياء فيها البتة، إذ لا يمكن أن يعمل عملاً فيه، وربما احتاج الناس إلى بعض أعمالهم في الليل، إما لضرورة أو لضيق وقت عليهم من النهار، وقد يقع ذلك لشدة حرارة، أو لغيره من الأسباب، فكان ضوء القمر في الليل من جملة ما نحتاج إليه في المعونة على ذلك،

24 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 17.

25 سورة نوح، الآية: 16.

26 سورة النبأ، الآية: 13.

27 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 18.

28 المرجع السابق، ص 20-21.

29 سورة الفرقان، الآية: 61.

فجعل طلوعه في بعض الليالي، وينقص نوره عن نور الشمس وحرها، لئلا ينشط الناس في العمل نشاطهم في النهار، فينعدم ما به ينعمون من الهدوء والقرار، فيضر ذلك بهم".⁽³⁰⁾

ثم يتحدث عن دور الكواكب العظيم بأسلوب جميل يدعو العقول للتفكير بحمكة وتأمل، فالنجوم هي زينة للسماء، والقمر فيه إنارة لعتمة الليل الهيم، ثم في القمر علم الشهور والسنين، وكما للقمر دور في الحساب كذلك للنجوم دلائل وعلامات على أوقات كثيرة في العمل كالزراعة، والاهتداء في السفر في البر والبحر، فما أطف هذا التدبير الإلهي العظيم، يقول: "وانظر في هذه التي تظهر في بعض السنة، وتحتجب في بعضها، مثل الثريا والجوزاء والشعري، فإنها لو كانت كلها تظهر في وقت واحد لم يكن لشيء منها دلالة على جهالة تعرفها الناس ويهتدون بها، فكان في طلوع بعضها في وقت واحد دون الآخر يدل على ما ينتفع به الناس عند طلوعه مما يصلحهم؛ ولذلك جعلت بنات نعش ظاهرة لا تغيب لضرب من المصلحة، فإنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر، فإنها لا تغيب ولا تتواري".⁽³¹⁾

ويختم هذا القسم بقوله: "فقد كفي الناس التغير في هذا الأمر الجليل، الذي ليس لهم قدرة ولا حيلة في إصلاحه، ولو نزل به تغير فإنه يوجب ذلك التغير أمراً في الأرض، إذ قوام الأرض مرتبط بالسماء، فالأمر في جميع ذلك ماضٍ على قدرة البارئ سبحانه، لا يختل ولا يعتل، ولا يتخلف منه شيء عن ميقاته لصالح العالم، فسبحان العليم القدير".⁽³²⁾

والحق أن ما جاء به الغزالي في حديثه عن الشمس والقمر والكواكب ليدعو الفكر للتأمل، فهو من أعلام الدعوة لاستخدام القوى العقلية التي منحها الله للناس، وتمايزوا بها، فكانت بينهم درجات، بل موضع من مواضع القياس للذكاء، والإبداع، فهذا ظاهر مما ذكره صاحب كتاب الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المائة بقوله نقلاً عن شيخ الأزهر: "إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم، وشعب المعرفة، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي، خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام، وإذا ذكر البخاري ومسلم وأحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ والصدق، والأمانة، والدقة في معرفة الرجال.. وإذا ذكر الغزالي، فقد تشعبت النواحي، ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال رجال متعددون، لكل واحد قدره وقيمته"⁽³³⁾ وما هذا إلا لعظيم فضله وجميل صنيعه، وفكره المبدع الذي ظهر في أغلب ضروب العلم، فترك في أثره قل مثيله، وندر شبيهه.

- الحكمة في خلق الأرض:

لم يقف حديث الغزالي في كتابه هذا عن الحكمة في خلق الكون عند الشمس والقمر والكواكب، بل تحدث أيضاً عن الحكمة في خلق الأرض، فالأرض خلقت مستقر للناس، ويذكر قوله تعالى: "والأرض فرشناها فنعم الماهدون"⁽³⁴⁾ وقوله تعالى: "وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لالعيبين"⁽³⁵⁾ فالله خلق الأرض لغرض يعين الإنسان

30 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 23.

31 المرجع السابق، الغزالي، ص 25.

32 المرجع السابق، ص 26.

33 الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المائة الخامسة، صالح أحمد الشامي، ص 30.

34 سورة الذاريات، الآية: 48.

35 سورة الأنبياء، الآية: 16.

على الاستقرار، والعيش، يقول في ذلك: "فانظر كيف جعل الله الأرض مهادا، ليستقر عليها الحيوان، فإنه لا بد له من مستقر، ولا غنى له عن قوت، فجميع الأرض محل للنبات لقوته، ومسكن يكتنه من الحر والبرد، ومدفن يدفن فيه ما يؤدي رائحته والجيف والأقذار من أجسام بني آدم وغيرها، كما قال سبحانه: " ألم نجعل الأرض كفاتا، أحياء وأمواتا" ثم ذلل طرقها لينتقل فيها الخلق لطلب مأربهم، فهي موضوعة لبقاء النسل من جميع أصناف الحيوان، والحرث، والنبات، وجعل فيها الاستقرار والثبات"⁽³⁶⁾

ويذكر في حكمة الأرض أن هبوب الرياح من الشمال أرفع من هبوب الجنوب؛ وذلك لينحدر الماء على وجه الأرض، فيسقيها ويرويها، ثم إن في الأرض معادن غيرت حياة الإنسان عندما اكتشفها، وحولت عصوره من عصر إلى عصر آخر، يقول: "انظر إلى ما خلق الله من المعادن، وما يخرج منها من أنواع الجواهر المختلفة في منافعها وألوانها، مثل الذهب والفضة، والياقوت والزمرد، وأشياء كثيرة من هذا الأحجار الشفافة المختلفة في ألوانها، وأنواع أخرى مما يصلح للأعمال والجديد، كالنحاس والحديد، والقزدير والرصاص، والكبريت والزرنيخ، والتوتيا والرخام، والجبس والنفط، وأنواع لو عدت لطلال ذكرها، وهو ما ينتفع به الناس وينصرف فيما يصلحهم، فهذه نعم يسرها سبحانه لهم لعمارة هذه الدار"⁽³⁷⁾ ويذكر في هذه المعاني قوله تعالى: "وأسلنا له عين القطر"⁽³⁸⁾ وقوله تعالى: " وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس"⁽³⁹⁾ يريد من خلال هذا الآيات والعبارات أن يبعث في عقولنا تساؤلات عديدة تتجه إلى مركز واحد، وهو ما الغرض من خلق الأرض؟ فالجواب متعلق بفهم ما ضمننت الأرض به من أسرار لاستقرار الإنسانية جمعاء.

ومن حكمة خلق الأرض حكمة الله في خلق الجبال التي هي رواسي، لا تميد، وتثبت الأرض، وكان لها على المسافرين فضل كبير للاستدلال في السفر، والتنقل بين مكان وآخر، ويتخذونها مساكن في الحضارات القديمة، يقول: " وفيها وهاد تنبت مزارع للأنعام، ومزارع لبني آدم، ومساكن للوحوش، ومواضع لأجل النحل، ومن منافع الجبال ما يتخذها العباد من المساكن تقيمهم الحر والبرد، ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى، وقد ذكر الله تعالى ذلك فقال: " وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمينين" ومن فوائد الجبال أنها جعلت أعلاما يستدل بها المسافرون على الطرقات في نواحي الأرض، ويستدل بها المسافرون في البحار على الموانئ؛ ومن فوائدها أن الفئة القليلة الخائفة من عدوان من تطيقه تتخذ عليها ما يحصنهم، ويؤمنهم، ويمنعها ممن تخافه فتطمئن لذلك"⁽⁴⁰⁾

- الحكمة في خلق البحر والماء:

في هذا القسم يتكلم الغزالي على حكمته تعالى في خلق البحر، الذي جاء لتحقيق منافع الناس من كنوزه، وسمكه وحيواناته الأخرى التي تماثل في بعض الأحيان وتقابل حيوانات الأرض، من ذلك قولنا لحيوان بحري فرس البحر تشبيهاً له بالفرس البري، ويذكر في هذا السياق قوله تعالى: " وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحمًا طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها. وترى الفلك مواخر فيه. ولتبتغوا من فضله. ولعلكم تشكرون"⁽⁴¹⁾ فالبحر فيه منافع عظيمة للناس لا تكاد تحصى، فالله سخره لخدمتنا في الأكل والسفر، والوضوء أيضاً، فقد ورد عن الرسول صلى

36 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 27- 28.

37 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 29.

38 سورة سبأ، الآية: 12.

39 سورة الحديد، الآية: 25.

40 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 32.

41 سورة النحل، الآية: 14.

الله عليه وسلم: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته"، يقول الغزالي في هذه المعاني: "اعلم رحمك الله. أن الله سبحانه وتعالى خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها، فجعلها مكتنفة لأقطار الأرض التي هي قطعة من الأرض المستورة بالبحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتى أن المكشوف من البراري والجبال عن الماء بالإضافة إلى الماء كربة صغيرة في بحر عظيم، فاعلم أن ما يخلق في الأرض من الحيوان بالإضافة إلى ما خلق في البحر كإضافة الأرض إلى البحر، وقد شاهدت عجائب ما هو مكشوف منها، فتأمل عجائب البحر فإن فيه من الحيوان والجواهر والطيب أضعاف ما تشاهده على وجه الأرض" (42)

ولما كانت الغاية العظمى من خلق البحر هي التسخير للبشر كان الفلك جزء منه؛ لأنه مرتبط بالتسخير لنقل البشر في البحر من مكان إلى آخر، كما تحمل أثقالهم، ومتاعهم، فلا يمكن وصولهم إليها إلا بالسفن، وفي حديه دعوة للتأمل لما أبدع الخالق في خلق البحر، كما أن في البحر ثروات ثمينة جداً كاللؤلؤ، والمرجان، والأصداف النادرة، وما ذكر هذه الأشياء إلا في معرض الامتنان، يقول: "ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ مدوراً في صدف تحت الماء، وأثبت المرجان في جنح صخور في البحر، فقال سبحانه: "يخرج منها اللؤلؤ والمرجان" وذلك في معرض الامتنان، وقيل المرجان المذكور في القرآن هو الرقيق من اللؤلؤ، ثم قال: "فبأي آلاء ربكما تكذبان" وآلؤه: تفضله ونعمه. ثم انظر ما يقذفه من العنبر وغيره من المنفوع، ثم انظر إلى عجائب السفن، وكيف مسكها على وجه الماء تسير فيها العباد لطلب الأموال" (43)

وبعد أن تكلم الغزالي على البحر ينتقل للحديث عن الماء، والذي جعل الله منه كل شيء حي، وهو سر الحياة والوجود، وهو يشكل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية، ويذكر هنا قوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي. أفلا يؤمنون" (44)، وقوله تعالى: "وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة. ما كان لكم أن تنبتوا شجرها. أإله مع الله. بل هم قوم يعدلون" (45)

- الحكمة في خلق الهواء والنار:

لم يقف الغزالي في كتابه الحكمة في خلق الله في حديثه عن الحكمة في خلق الكون فيما ذكرنا من خلق الشمس والقمر والأرض والكواكب والبحر والماء بل ختم هذا القسم في الحكمة في خلق الهواء والنار، فالله سبحانه جعل الأمور بمقاديرها، وسخر كل شيء بقدر، فالله خلق الرياح لفعل اللقح، والتبريد، وجعل منها سلاحاً كما في الغزوات الإسلامية، فحركها بحركة العذاب، فجعله عقيماً، وأودعه عذاباً، والريح الصرصر العاتية التي سخرها الله على الكفار دليل على ذلك، "والرياح المذكورة في القرآن ثمان:

أربع رحمة.. وأربع عذاب. فرياح الرحمة: الناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والرخاء، ورياح العذاب: العاصف، والقاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرصر وهما في البر" (46) وباستنشاقنا للهواء نعيش جميعاً، فهو الحامل للأوكسجين، قال تعالى: "وأرسلنا الرياح لواقح، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه، وما أنتم له

42 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 33.

43 المرجع السابق، ص 34.

44 سورة الأنبياء، الآية: 30.

45 سورة النمل، الآية: 60.

46 موسوعة فقه القلوب، محمد إبراهيم التويجري، بيت الأفكار الدولية، الأردن، 2006م، ج1، ص 543-544.

بخازنين⁽⁴⁷⁾ ثم سوق الرياح للسحاب لإنزال الغيث في الأرض بمشيئة الله تعالى، وتقديره لها مكاناً، يقول في ذلك: "اعلم رحمك الله أن الهواء في خلقه تتخلله الرياح، ولولا ذلك لهلك جميع البر، وباستنشاقه تعطلت الحرارة في أجسام جميع الحيوانات، لأنه لهم مثل الماء لحيوان البحر، فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه لانصرفت الحرارة التي في الحيوانات إلى قلبها، فكان هلاكاً بسبب ذلك. ثم انظر إلى الحكمة في سوق السحاب به، فيقطع المطر بانتقال السحاب إلى الموضع الذي يحتاج إلى المطر فيه للزراعة، فلولا لطف الباري بخلق الرياح لثقلت السحاب وبقيت راكدة في أماكنها، وامتنع انتفاعاً الأرض بها"⁽⁴⁸⁾

ثم انتقل الغزالي رحمه الله للحديث عن منافع الرياح العظيمة في حياتنا، ومن خلال فهمنا لهذه المهام العظيمة التي أوكلها الله للرياح، نعرف القيمة والحكمة في خلق الهواء، وهنا يورد قوله تعالى: "هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب، ومنه شجر فيه تسمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات. إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون"⁽⁴⁹⁾ فالرياح في هبوبها تذوب وتزيل عفن الأرض، والرياح تنقل فضل السواحل بما ينتفع به الناس، فسبحان الله جل شأنه وعلاه، يقول: "ثم من تمام النعمة وعظيم الحكمة أن جعل سبحانه الصحو يتخلل نزول الغيث، فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم، فلو دام واحد منهما عليه لكان فساداً، ألا ترى إلى الأمطار إذا توالى وكثرت عفنت البقول والخضروات، وهدمت المساكن والبيوت، وقطعت السبل ومنعت من الأسفار، وكثير من الحرف والصناعات، ولو دام الصحو لجفت الأبدان والنبات وعفن الماء الذي في العيون والأدوية، فأضر ذلك بالعباد، وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً آخر من الأمراض، وغلت بسببه الأسواق، وبطل المرعى، وتعدر على النحل ما يجدونه من الرطوبة التي يرعاها على الأزهار"⁽⁵⁰⁾ فهو سبحانه وتعالى خلق الهواء من خلقه للكون وسخرها للناس ليدعوهم إلى التفكير بآيات الله وآلائه " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِزَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ"⁽⁵¹⁾

ولا يتخطى الغزالي في كلامه على خلق الكون من الحديث عن خلق النار، فهي آية من آيات الله، فلو تأملنا هذه النار التي نستخدمها في حياتنا لأغراض كثيرة وعظيمة منها الصناعة والتدفئة والزراعة وكل شيء في حياتنا، ونعلم أن النار حولت حياة الإنسان من مرحلة إلى مرحلة، فبذلك علمنا فضل الله علينا في تسخيرها لنا، قال تعالى: "أفرأيتم النار التي تورون. أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين. فسبح باسم ربك العظيم"⁽⁵²⁾ وما هذه الآيات إلا لدليل عظيمته سبحانه" فالإنسان مأمور أن ينظر إلى المخلوقات التي خلقها الله في هذا الكون ولا يتعلق بها، بل يتجاوزها إلى خالقها. فينظر إلى الصور ويتجاوزها إلى الخالق سبحانه، وذلك حتى لا تأتي عظمتها في القلوب مكان عظمة الله، الذي يستحق التعظيم الكامل وحده لا شريك له، ولا تأتي محبتها مكان

47 سورة الحجر، الآية: 22.

48 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 38.

49 سورة النمل، الآيتان: 10- 11.

50 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 40 .

51 سورة آل عمران، الآية: 190.

52 سورة الواقعة، الآيات: 71- 74.

محبة الله، الذي يستحق المحبة الكاملة وحده لا شريك له، وينظر في ملكوت والسموات والأرض نظر تفكر واعتبار لا نظر تفرج ولهو⁽⁵³⁾.

إن الغزالي يبين في هذا القسم ضرورة خلق النار في حياتنا، يقول: "اعلم وفقنا الله وإياك أن الله خلق النار، وهي من أعظم النعم على عباده، ولما علم سبحانه وتعالى أن كثرتها وبثها في العالم مفسدة، جعلها الله بحكمته محصورة، حتى إذا احتيج إليها، وجدت واستعملت في كل أمر يحتاج إليه، فهي مخزونة في الأجسام، ومنافعها كثيرة لا تحصى، فمنها ما تصلحه من الطبائخ والأشربة التي لولاها لم يحصل فيها نضج ولا تركيب ولا اختلاط، ولا صحة هضم لمن لا يستعملها في أكل وشرب، فانظر لطف الباري سبحانه في هذا الأمر المهم"⁽⁵⁴⁾.

ولفائدة النار العظمى في الصناعة وصهر المعادن التي هي صلب عمليات التصنيع في المعامل يختم الغزالي هذا القسم من خلق النار في الحديث عن هذه المعاني، يقول: "وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك بأنها نعمة توجب الشكر، فقال تعالى: "اعملوا آل داوود شكراً. وقليل من عبادي الشكور"⁽⁵⁵⁾ وبها يلين الحديد، فيعملون به أنواعاً من المنافع والآلات للحروب، مثل: الدروع والسيوف، إلى غير ذلك مما يطول مقداره، وقد نبه الله تعالى إلى مثل هذا فقال: "وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس"⁽⁵⁶⁾ ومن الحديد يعمل آلات يطرق بها، وآلات لقطع الجبال الصماء، وآلات لنجارة الأخشاب مما يكثر تعدادها، فلولا لطف الله سبحانه بخلق النار لم يحصل من ذلك شيء من المنافع، ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة نقود ولا زينة ولا منفعة، ولكانت هذه الجواهر معدودة من جملة الأثرية."⁽⁵⁷⁾

ثانياً: الحكمة في خلق الإنسان:

وبعد الحديث عن الحكمة من خلق الأشياء المتعلقة بالكون ينتقل الغزالي لباب عظيم من أبواب التفكير بآلاء الله وهو الحكمة من خلق الإنسان، ولعل الآية الكريمة وهي قوله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" تبين لنا جلّ وهدف خلق الله للإنسان الذي استخلفه الأرض وجعله وصياً عليها، وبدأ الغزالي هذا القسم بقوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين"⁽⁵⁸⁾ ففي هذه الآية الجليلة المبني العظيمة المعنى يتجلى الإبداع الخلقى فإله خلق الإنسان بأحسن صورة هو القادر سبحانه على كل شيء، يقول: "اعلم وفقك الله تعالى: أن عز وجل لما سبق في علمه خلق بني آدم، وبثهم في هذه الدار، وتكليفهم فيها للبلوى والاختبار، خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض، فخلق سبحانه الذكر

53 موسوعة فقه القلوب، محمد إبراهيم التويجري، بيت الأفكار الدولية، الأردن، 2006م، ج1، ص 421.

54 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 42.

55 سورة سبأ، الآية: 13.

56 سورة الحديد، الآية: 25.

57 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 43.

58 الآيات من 12- 16 سورة المؤمنون.

والأنثى، وألقى في قلوبهم المحبة والدواعي، حتى عجزوا عن الصبر وعدموا الحيلة في اجتناب الشهوة، فساقتم الشهوة المفطورة في خلقهم إلى الاجتماع"⁽⁵⁹⁾

ويدعو الغزالي العقل للتأمل والتفكير بمعجزة التصور لخلق الجسم البشري، والذي مهما حاولنا فهم كنهه بشكل تام عجزنا عن ذلك، وما هذا إلا لعظيم قدرة الخالق جل علاه، يقول: "ثم انظر هل تجد في خلق البدن شيئاً لا معنى له؟ هل خلق البصر إلا ليدرك الأشياء والألوان، فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها، هل كان في الألوان منفعة؟ ولو لم يكن لخلق الأبصار نور خارج عن نورها ما كان ينتفع بالبصر. وهل خلق الإنسان إلا ليدرك الأصوات؟ فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن في الأصوات منفعة. وكذلك سائر الحواس"⁽⁶⁰⁾ وهذه الآيات والكلمات الجليلة تدعوننا لفهم المعنى الحقيقي الذي علينا التفكر به، قال تعالى: "فلينظر الإنسان مم خلق"⁽⁶¹⁾

ثالثاً: الحكمة في خلق الطير والبهائم:

الله خلق الطير والبهائم لجليل حكمته ولم يكن الخلق عبثاً، بل لإرادة الحق سبحانه وتعالى، وهذا يظهر في هذا القسم من كتاب الغزالي رحمه الله، فقد بدأه بقوله تعالى: "ألم يروا إلى الطير مسخرات في جوف السماء ما يمسكهن إلا الله"⁽⁶²⁾ وقوله تعالى: "أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن. إنه بكل شيء بصير"⁽⁶³⁾

ثم بين الغزالي من خلال هذا القسم الفائدة والحكمة من خلق الطير الذي يتصف بالخفة في الطيران، فليس فيه شيئاً من الثقل، فلو كان فيه من الثقل لكان ذلك عائقاً في الطيران، وكسا جسده ريش يقيه البرد ويعطيه الدفء، وجعل فيه غريزة الحفاظ على حياة بيضه بعدم فساده من خلال تبادل الذكر والأنثى في الاحتضان للبيض، وكيف ألهمه الله معرفة كمال الفرخ، وانتهاء البيض، يقول: "اعلم رحمك الله أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران، ولم يخلق فيه ما يثقله، وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه. وصرف غذاءه، فقسم لكل عضو ما يناسبه، فإن كان رخواً أو يابساً أو بين ذلك انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به، فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله"⁽⁶⁴⁾ ويقول في موضع آخر: "ثم انظر في الحمام الذكر والأنثى كيف يتداوان على التسخين خوف أن يفسد بيضهم، فيعقب هذا صاحبه كأنه أعلم بأن عدم هذا التدبير يفسد به بيضهم. ثم انظر إلى خلق البيضة وما فيها من الحكم لله، ففيها المح الأصفر الحابر، والماء الأبيض الرقيق، فبعضه لينشأ منه جسده، وبعضه يتغذى به إلى أن تنشق عنه، وما في ذلك من التدبير المحكم العجيب، وكيف جعل معه غذاءه في بيضة مغلقة تلتقي به إلى حين كماله فيها وخروجه"⁽⁶⁵⁾

59 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 45.

60 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 57.

61 سورة الطارق، آية 5.

62 سورة النحل، الآية: 79.

63 سورة الملك، الآية: 19.

64 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 71.

65 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 75.

وكما تحدث الغزالي في هذا القسم عن الحكمة في خلق الطير تكلم على الحكمة في خلق الهائم، فذكر قوله تعالى: "والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون. وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس. إن ربكم لرءوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة. ويخلق ما لا تعلمون"⁽⁶⁶⁾ ففي هذه الآية العظيمة على أقسام الهائم وفوائدها من جمال، ومنفعة السفر، وحمل المتاع. فالله خلقها لمنافع العباد، يقول الغزالي: "إن الله خلق الهائم لمنافع العباد، وامتنانا عليهم، كما نهت على ذلك هذه الآية، فخلقها الله بلحم مثبت على عظام صلبة، وعصب شديد وعروق شداد، وضم بعضها إلى بعض، ولم يجعلها رخوة ولا صلبة كصلابة الحجارة، وجعل لذلك تجلداً اشتمل على أبدانها كلها؛ لأنه أريد منها القوة للعمل والحمل؛ ثم خلقها سبحانه سمیعة بصيرة لیبليغ الإنسان حاجته"⁽⁶⁷⁾ وقد ختم هذا القسم بأن الله تبارك وتعالى خلق الحيوانات مختلفة الطباع والخلق، في مذلولة مطیعة مسخرة للإنسان، قابلة للتنظيم والتعليم ليستعان به في الصيد كالكلب مثلاً، ومنها ما هو مأنوس لحمل المتاع والسفر وللركوب كالخيل، ومنها منافع الطعام كالماشية بأنواعها... وما خفي من الحكم في خلق الله تعالى أكثر مما علم.

رابعاً: الحكمة في خلق بعض الحيوانات "النمل- النحل- العنكبوت- دود القز"

بعد حديث الغزالي رحمه الله عن الحكمة في خلق الهائم والطير ينتقل للحديث عن الحكمة في خلق بعض من الحيوانات وهي: النمل والنحل والعنكبوت ودود القز، فيبدأ هذا القسم بقوله تعالى: "وما من دابة في الأرض. ولا طائر يطير بجناحيه. إلا أمم أمثالكم. ما فرطنا في الكتاب من شيء. ثم إلى ربهم يحشرون"⁽⁶⁸⁾ ففي هذه الآية الكريمة دلالة على أن القرآن الكريم ما ترك لنا شيئاً دون أن يدعونا للتفكير فيه، ويشغل فينا ذلك التساؤل وفي أنفسكم أفلا تبصرون، ثم يدعونا للنظر إل النمل في قوته وقدرته وصره لجمع قوته في مستعمرات وفق مبدأ العمل الجماعي، يقول: "انظر إلى النمل وما ألهمت في احتشادها في جمع قوتها وتعاونها على ذلك، وإعدادها لوقت عجزها عن الخروج، والتصرف بسبب حر أو برد. وألهمت في تقلب ذلك من الحزم مالم يكن عند من يعرف العواقب، حتى تراها في ذلك إذا عجز بعضها عن حمل ما حمله، أو جهد به، أعانه آخر منه، فصارت متعاونة على النقل كما يتعاون الناس على العلم الذي لا يتم إلا بالتعاون، ثم إنها ألهمت حفر بيت في الأرض، تبتدئ في ذلك في إخراج تراها، وتقصد إلى الحب الذي فيه قوتها، فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض، فما خلق هذا في جبلتها إلا الرحمن الرحيم، ثم إذا أصاب الحب بلل أخرجته فنشرته حتى يجف، ثم إنها لا تتخذ البيوت إلا فيما علا من الأرض خوفاً من السيل أن يغرقها"⁽⁶⁹⁾

ثم يكمل الغزالي هذا القسم بالتكلم على حكمة الله في خلق النحل، والذي يجعل لنفسه بيوتا مما نعرش، أو من الجبال، قال تعالى: "وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون"⁽⁷⁰⁾ يقول في هذه المعاني: "ثم انظر إلى النحل وما ألهمت إليه من العجائب والحكم، فإن الباري سبحانه جعل لها رئيساً تتبعه

66 سورة النحل ، الآيات: 5- 8.

67 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 79.

68 سورة الأنعام، الآية: 38.

69 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 89- 90.

70 سورة النحل، الآية: 68.

وتهتدي به فيما تناله من أقواتها، فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل أحدهما الآخر، وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الافتراق، ثم إنها ألهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار، فيستحل في أجوافها عسلاً، فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد من شراب فيه شفاء للناس كما أخبر سبحانه وتعالى" (71)

ثم يتحدث الغزالي عن العنكبوت والحكمة من خلقه تعالى له بقوله: "انظر إلى العنكبوت وما خلق الله فيها من الحكمة، فإن الله خلق في جسدها رطوبة تنسج منها بيتاً لتسكنه، وشركاً لصيدها، فهو مخلوق من جسدها، فتنصبه أبداً مثل الشرك، وفي ركن الشرك بيتها، وتكون سعة بيتها بحيث يغيب شخصها، والشرك من خيوط رفاق تلتف على أرجل الذباب والناموس وما أشبه ذلك..... فانظر ما جعل الله فيها من الأسباب لحصول قوتها، فبلغت في ذلك ما يبلغه الإنسان بالفكرة والحيلة، كل ذلك لإصلاحها ونيل قوتها، ولتعلم أن الله هو المدبر لهذا." (72)

وقد ختم الغزالي كتابه ببات أسماه" فيما تستشعر به القلوب من العظمة لعلام الغيوب" وفيه وضع نصوصاً من الآيات الكريمة منها قوله تعالى: "تسمح له السموات السبع والأرض ومن فيهن. إن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم. إنه كان حليماً غفوراً" (73) يقول في هذا الباب وهو يدعو للفكر والتأمل في الذي ذكر من أبواب الكتاب: "اعلم وفقنا الله وإياك أن جميع ما تقدم ذكره في هذا الكتاب من بدائع الخلق وعجائب الصنع، وما ظهر في مخلوقاته من الحكم آيات بينات، وبراهين واضحة، ودلائل دالات على جلال بارئها وقدرته، ونفوذ مشيئته، وظهور عظمتها، فإنك إذا نظرت إلى ما هو أدنى إليك وهي نفسك، رأيت فيها من العجائب والآيات ما سبق التنبيه عليه وأعظم منه، وكذلك إذا نظرت إلى مستقرك وهو الأرض، أجلت فكرك فيها، وأطلت النظر في استرسال ذهنك فيما يجعل فيها وعليها من جبال شامخات، وما أحيط بها من بحار زاخرات، وما جرى فيها من الأنهار، وما انبث فيها من أصناف النباتات والأشجار، وما بثّ فيها من الدواب، إلى غير ذلك مما يعتبر به أولو الألباب" (74)

الخاتمة:

لقد كانت هذه جولة في عالم كتاب الغزالي "الحكمة في مخلوقات الله"، حاول الباحث من خلالها تسليط الضوء على هذا الكتاب القيم الذي لم يلقَ عنايةً ودراسةً وتبسيطاً وشرحاً وتعليقاً من قبل الدارسين، وقد رصد الباحث فيه مواطن التأمل والتفكير التي تدعو إلى التبصر في العقل عن سر خلق الله لما خلق، وعظيم الذي خلق وسخر لخدمتنا في هذا الكون الفسيح الرحب الذي أبدع الله سبحانه وتعالى خلقه، فهو أحسن الخالقين. رحم الله الإمام الغزالي والذي كان علماً من أعلام الدعوة إلى الله، وما هذا الكتاب إلا دليل على هذه الدعوة الجليلة من مؤلفاته. فهو حبة من عقد مؤلفات الغزالي الجليلة والتي زانت مكتبتنا العربية وأفادت كثيراً من الباحثين والقراء، نفعنا الله بعلمه، واستعملنا بخدمة علمه، والله من وراء القصد.

71 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 90.

72 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 91.

73 سورة الإسراء، الآية: 44.

74 الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، ص 109-110.

ثبت المصادر والمراجع

- 1- القرآن الكريم.
- 2- إتحاف السادة المتقين، محمد بن محمد الحسيني الزبيدي، دار الفكر، الجزء الأول.
- 3- الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المائة الخامسة، صالح أحمد الشامي، دار القلم، دمشق، ط1، 1993.
- 4- الحكمة في مخلوقات الله، الغزالي، تحقيق د. محمد رشيد القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط1، 1978.
- 5- سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: خيرى سعيد، المكتبة التوفيقية، مصر.
- 6- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، تحقيق: مصطفى عبد القادر أحمد عطا، ط1، مطبعة الإرشاد، بغداد
- 7- المستصفى في علم الأصول، الغزالي، ط1، المطبعة الأميرية، بيروت، "1322هـ" 1900.
- 8- معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، "1397هـ" 1975، دار صادر، بيروت.
- 9- المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال، الغزالي، تحقيق د. سمير دغيم، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، "1415هـ" 1993.
- 10- موسوعة فقه القلوب، محمد إبراهيم التويجري، بيت الأفكار الدولية، الأردن، "1428هـ" 2006.
- 11- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة دار الصياد، بيروت.

الرسائل :

- 1- المآخذ العقدية على كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، رسالة ماجستير في العقيدة، جامعة أم القرى، الطالبة آمال بنت عبد الرحمن بن أحمد، إشراف د. سالم بن محمد القرني، 1428هـ 2006.

Abstract: The issues of existence and creation are two of the most important themes in the Islamic thought. These two issues encouraged thinkers to write and totally search in its inner meanings and this is the method of Al Emam AL gazaly The book entitled "Alhekme fi maklokat Allah " is one of the most valuable books in the Islamic thinking where it aims to open the way of thinking of the issues of existence and creation.

The book is divided into many section , the first one is about the life of Algazali "his name, birth of date and place, his scientific books and writings". The second section is a study of the different book's sections highlighting the God wisdom of creating the universe and its parts as "the sun ,the moon ,the earth , the sea , the air ,and the fireetc" end then showing the wisdom of creating animals as " ants , bees , spiders ,and silk worm" this section also discusses the reasons that declares the wisdom of creation .

the book ends with a conclusion of all that mentioned before subscribed by the whole resources and books.
